

إخترنا
للجندى



القائد الرهيب
تيمور لنك

بقلم: السيد فرج





القائد الرهيب
تيمور لنگ

بقتل
السُّفُوح

.. وگانت جيوشه تنك معاقل
آسيا فتهتر عروش اوربا ،
ويتلفت ملوكها مذعورين ..
فقد كان يريد ان يحكم الدنيا
باسرها !

مقدمة . . .

XX

قبل خمسمائة وسبعين عاما من أيامنا هذه ،
حاول رجل أعرج متواضع النشأة أن يجعل من نفسه
حاكما على العالم بأسره ، وقد حالفه التوفيق في كل
خطوة أقدم عليها ، فلم يعرف الهزيمة قط . . ولم يظفر
بمثل سلطانه أحد .

وهناك على قبر في مدينة سمرقند - عروس
المواصم في القرن الرابع عشر - نقشت العبارة
الآتية :

(هنا المكان الذي استراح فيه العاهل المعظم
والسلطان الأكبر ، والجندي القوى المهيبة . . السيد
تيمون ، قاهر العالم) .

* *

بدأ على رقعة أرض صغيرة ، في رفقة قطع من
الماشية ، في وسط آسيا ! فلم يكن ابن ملك كما كان
الاسكندر المقدوني ، ولا خريج أكاديمية حربية كنبليون ،
ولا كان وريث عصبية قبلية مثل جنكيز خان . . كما
أنه لم يجد في بلاده شعبا موحدا كالشعب المقدوني
أو الشعب الفرنسي أو شعب المبول ! وإنما هو الذي جمع
الجيش ، ووجد الشعب ، وبسط نفوذه على آسيا
وأوروبا ، وهزم جيوش العالم . .

كان يدمر المدن ثم يعيد بناءها وفق هندسته
الخاصة ، ويجعل القوافل تمر من أوروبا الى آسيا ، ومن
آسيا الى أوروبا على حسب النظم التجارية التي وضعها
بنفسه . ويجمع في يده اقتصاديات جميع البلدان
فيرمم خطوطها الأساسية ويضع ميزانياتها العامة . .

كان ينتصر بالرعب ، ويدمر قلوب أعدائه من الخوف
قبل اللقاء هدم المدن وحصد الأرواح وأقام
أهراما من جماجم خصومه . . واندفع لغزو آسيا
وأوروبا كالريح السوداء ، وكان التتار الذين يقودهم
يقفزون وراء الغذاء والدماء والنساء ! .

وقد لقبه أعداؤه بالذئب الأغبر آكل الأرض، على حين
كان أنصاره يطلقون عليه : الأسد الفازي .

وعرفت امبراطوريته باسم «امبراطورية تيمور لنك»
فقد نمت على يديه ، وانتهت بنهايته .



الاب.. والابن

نشأ تيمور في بيت صغير خشبي تختلط فيه الماشية بالسكان
وكان أبوه رجلاً متديناً يقضى وقته في تلاوة القرآن ، وقد عزف
عن الدنيا وآثر العبادة وكان لا يفتأ يحدث ابنه عن الله والاسلام
والدنيا والوطن .. فأحاطه بالكثير .

قال له والده وهو يحدثه عن بلاده « لقد شرع جنكيز خان
في السيطرة على العالم فبلغ مراده ثم توفاه الله ، فانقسمت
امبراطوريته الى أربع مناطق بين أولاده الثلاثة وأولاد ابنه الأكبر
- الذي مات قبله - كما يحدث في التركات الخاضعة ! فكانت
بلادنا من نصيب ابنه شاجتاي الذي أهمل أولاده في ملكهم
وانصرفوا للهوهم ومجونهم تاركين واليا من قبلهم يدبر الأمر
ويرفع اليهم الأموال والثمرات » .

وقال يحدثه عن دين الله : « اننى يا بنى أعبد الله وأصلى على
رسوله وأحترم الأولياء الصالحين والدرأوش ، وعليك يا بنى أن
تتمسك بمبادئ الاسلام الخمس : الشهادة - الصلاة - الصوم -
الزكاة - الحج » .

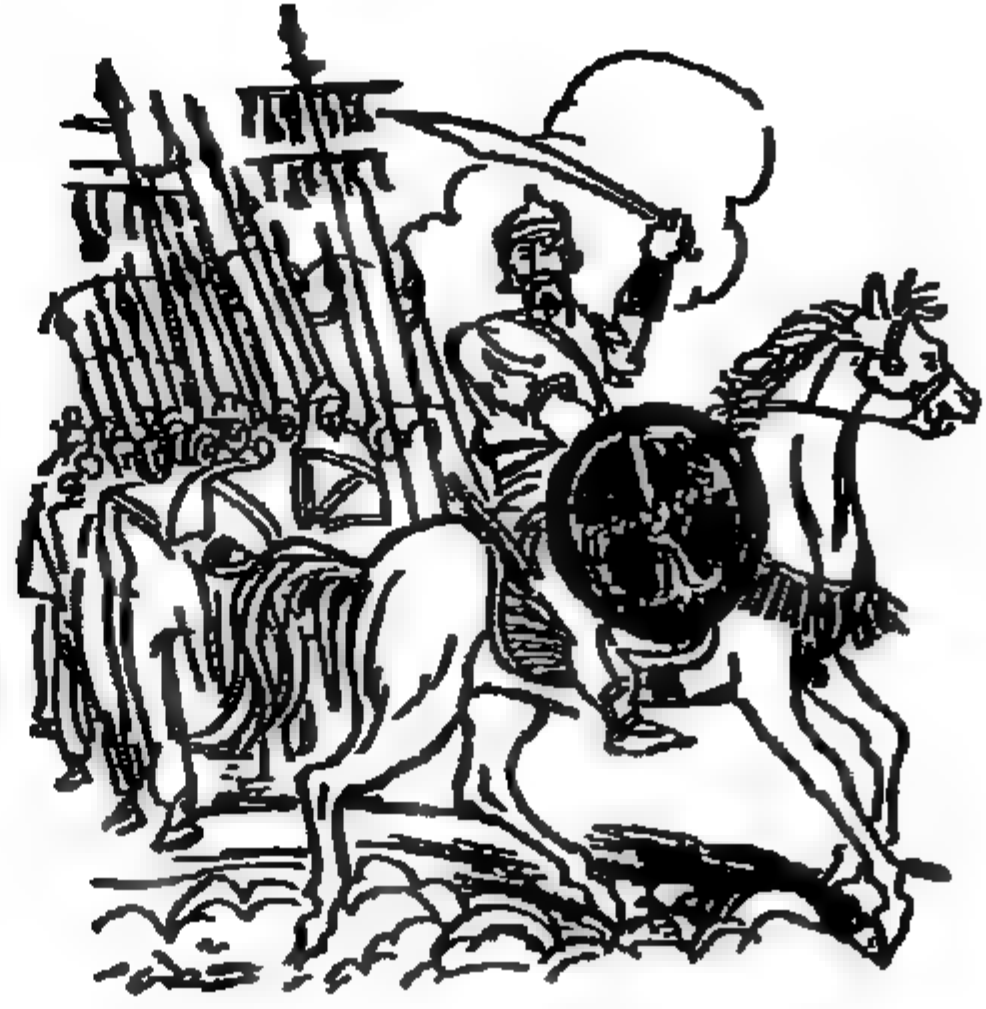
ثم حدثه عن الدنيا فقال له : انها دنيا بראה ظاهرها جميل
وباطنها رديء فهي أشبه بوعاء ذهبي مملوء بالحيات والعقارب !

ونشأ تيمور متأثراً ببساطة أيه ونظراته في الحياة ولكنه كان مطبوعاً بطابع عصره وميزات شباب جيله : الفروسية والصيد والمباراة .. فكان يتلو كتاب الله ويرتاد الجوامع ويجلس الى الأئمة يسمع الى التفسير والحديث ، وكان أيضاً يعتلى صهوة جواده فيسبق أقرانه ويذهب الى الصيد فيبرز رفقاءه ويشارك في مباريات البولو أو الفروسية أو القتال فإذا هو سيد الحلبة ، وصاحب قصب السبق .

وكان قوى البنية بهي الطلعة طويل القامة عريض المنكين كبير الرأس لامع العينين يصوبهما في محدثه فيسيطر عليه بنظرته وصوته الخفيض العميق وحديثه الرتيب وثقته بنفسه ورزاقته .

وكثيراً ما رثى تيمور في حلقة الجامع يستمع الى الشيخ ، وفي مجالس القوافل ينصت الى نوادر التجار وأخبار القتال ، وكان - وهو في سن السابعة عشرة - كثير الصمت مغرماً بالوحدة فيترك أصحابه الى مكان قفر ، يرح النظر في الأفق البعيد ويرسل الفكر وراء المجهول .. كأنما كان يستطلع البلاد المجاورة والعالم الذي سمع عنه ، أو كان يستشف المستقبل الذي ينتظره .. أو يفكر في الطريق الذي سوف يسلكه .

وهكذا ترى أن الابن قد تأثر بالأب ، وقد تأثر بالبيئة ، وراح يصنع نفسه بنظراته الخاصة ومزاياه الموهوبة وأفكاره الخصوصية .. وشرع يذرع الطريق .. فقد عرف أن لكل انسان طريقه !



القائد الصغير

استخلص تيمور عددا من أصحابه ولداته بعد اختبار وتمحيص
فصارت له فرقة من الفرسان الشجعان ذوي الاخلاص والحمية
وبدأ يجوب معهم المدن والقفار المجاورة واستطاع أن يقطع على
صهوات الخيل ألف ميل في الجبال والوهاد حتى وصل بعد
أسبوعين الى مضارب الأعراب حيث نزل في ضيافتهم يستمع الى
أحاديثهم ومغامراتهم وأخبار التجار ونوادر الترحال ، ويلعب معهم
الشطرنج .

وفكر القائد الصغير .. في أمر كبير .

كان قد اختلف مع عمه حاجي برلاس زعيم القبيلة ، فهجر
تيمور بلده ورحل الى « سالى ساراي » وفكر في أن يذهب لمقابلة
الحاكم رأسا ، وهو الأمير كزجان حاكم سمرقند .

واتقى جوادين من خيرة الجياد واصطحب معه خادمه القديم
عبد الله .

ورحب الحاكم بالفارس الشاب وأعجب بمنطقه وألمعيته ،
ووضعه تحت التجربة .. وهناك سلطت عليه العيون والآذان
ليعلموا مبلغ فروسيته وشجاعته واخلاصه .. وبدأ هو يتطلع
لتنظيمات الجيوش ووسائل التدريب وفنون الحكم .

وحدث ان أغار بعض المرتزقة على الحدود وجمعوا بعض
الجياد ليهربوا بها ، فرأى الحاكم فرصة عملية لاختبار تيمور
فاستدعاه وعهد اليه بالمهمة على رأس فرقة من الشبان الفرسان
وسرعان ما انطلق تيمور واستمر نصف اليوم على صهوة جواده
في سرعة فائقة حتى لحق بالمغيرين فأحاط بهم واستولى على
مغانمهم وعاد بها الى أصحابها فكافأه الحاكم وأهدى اليه قوسه
الخاصة وصندوق سهامه ، وقربه منه وأولاه اهتمامه .

وظفر تيمور من حليفه الكبير كزجان بهديتين ثمينتين :

الأولى : زوجته الجميلة النبيلة الجاى ختون أغا ، وقد اختارها
له الحاكم بنفسه من ذوات قرباه .

الثانية : رتبة البمباشى ، قائد الألف ، فأصبح تيمور قائدا
بحق . وبدأ يدرس القيادة عمليا وتحت امرته المطلقة ألف جندي!
ودخل تيمور الى مساحة القيادة تحت سمع التاريخ وبصره . وأدرك
هو ذلك ، وعرف أنه فى طريق أهدافه العظمى .

ولهذا فانه حين رزقه الله غلاما اختار له اسم « جهانجير » أى
« مالك العالم » .



الجندي السياسي

كان التتار في القرن الرابع عشر لا يعرفون الاستقرار ولا يطبقون الثبات تحت امرة الحاكم ولهذا فقد استمرت المؤامرات والانقلابات ولم يكن يحول دون ذلك الا ملك قوى مهيب يحسب رؤساء العشائر حسابه ويلتزمون في ظله حدودهم ، وقد كان طفلك خان العاهل المغولي هو الحاكم الحقيقي لبلاد ما وراء النهر وكان قد عهد لكاجان بالحكم وكان كاجان قويا وقديرا ولكن كانت لديه استهانة أتاحت لخصومه الفرصة ، وأخيرا كلفته حياته ، فقد خرج يوما الى الصيد بغير حرس فوثب عليه اثنان من رؤساء العشائر فقتلاه رميا بالسهم .

ولقد كان من الطبيعي أن يتولى ابن جاكازان الحكم مكان والده ولكنه لم يطق العيش في جو المكاييد والفتنة والأطماع فقد تكاثر الطامعون في الحكم واستشف الفتى الخطر فأثر السلامة ونزع عن البلاد ، وعلى أثر ذلك ظهر في سمرقند «حاجى برلاس» و «جالير» ، من رؤساء العشائر وأخذوا بجمع بزمام الأمور .

وقد كانت قاعدة الحكم في ذلك الزمان أن اليد التي تقبض على السيف هي وحدها التي تستطيع أن تمسك بعصا الملك . . أى أن الحكم للأقوى .

ولم يرتض بقية الأمراء أن يكون حاجي برلاس وبايزيد جالير حاكمين ، فاتجه كل أمير الى ولايته يحشد رجاله ويعد عدته لصيد أى عدوان ، وعصيان أى أمر ، وتفرق التتار بين هذه المعسكرات وبقي تيمور فى المدينة الخضراء مع مئات من رجاله الأشداء الأوفياء .

عندما اضطربت الحالة وأندرت بالخطر رأى طفلك خان أن يعيد الأمور الى نصابها فجاء بنفسه الى سمرقند ، وتضاربت أفكار الأمراء هل يخضعون لأمره أو يشقون عصا الطاعة .

أما تيمور ، فاتخذ قرارا جريئا قال : سأذهب للقاء الخان الأكبر !

وربما كانت اللباقة أجدى فى هذه الحالة من المناوأة والقتال فلم يكن من الحكمة فى شئ أن ينزل تيمور الى المعركة قبل أن يستعد ، ولم يكن يعقل أن يواجه بعدة مئات من رجاله عشرات الآلاف من الجنود المنظمين القداماء فى خدمة عاهل المغول !

وكان تيمور قد فقد أباه وواراه التراب ، وودع زوجته وابنه لقيما فى سلام عند أسرتها ، واهتدى بأراء آييه الروحى ، الشيخ زين الدين ، ثم أخذ يجهز الهدايا الفاخرة والعطايا الثمينة ليقدمها الى الخان الأكبر .

كان تيمور أسرع المفكرين والمنفذين ، فانطلق مع رجاله فى أبهى ثيابهم الرسمية ، وسارت القافلة الضخمة من الجمال

والخيل المحملة بما خف حمله وغلا ثمنه تذرع الطريق ، وقد توقفت عن سيرها اضطرارا مرتين عندما فوجئت بطلائع قسوات الخان ، واضطر تيمور الى أن يغمر قواد تلك الطلائع بالكثير مما معه من هدايا وثمرات .. وأخيرا بلغ مضارب الخان وأعجب الأمراء والقادة بتيمور ، فأدخلوه عنده بتقديم حسن فاستقبله مرحبا ، واستمع اليه معجبا واستطلع أفكاره ونظراته بنفسه الاعجاب والتقدير الذي تلقى بهما هداياه وتفاصيله .

وكان تيمور قد قدم نفسه للخان بأنه زعيم البرلاس متناسيا بالحكام الآخرين ، وكان رد الخان أن منح تيمور رتبة الجنرال « تومان باشى » أى قائد المائة ألف ، وأعطاه براءة حكم الاقليم .

وقد تعرض تيمور لمؤامرات الطامعين فى الحكم مثل حاجى بارلاس وبايزيد جالير .. ولكن نجا من هذه المكاييد وتعرضت البلاد لحرب أهلية فسارع الخان بنفسه لحسم الموقف فقتل بايزيد وهرب حاجى بارلاس حيث لقي مصرعه على أيدي قطاع الطريق .

وأقام الخان ابنه الياس حاكما على بلاد التتار بمعاونة الجنرال يكيچوك .. كذلك عين « تيمور » أميرا لسمرقند .



نیمو الشترید

لم يكن تعيين تيمور حاكما على سمرقند أمرا مطلقا من الخان بل كان أمرا مقيدا .. ذلك أن حامية من المغول استمرت محتلة تحت امرة قائدها جنرال بيكيچوك فشر تيمور بغصة في حلقه زاد من مرارتها أن جنود الحامية أخذوا يعيشون في الأرض فسادا متاجرين في الأرزاق مستهينين بالأعراض مما أثار حفيظة المسلمين وجعل الشيخ زين الدين يجأ بالشكوى ويثير الشعور ضد المحتلين العابثين ، ولهذا رأى تيمور ضرورة وضع حد لهذه المساخر فكتب الى الخان .. على حين تنبه الآخرون لموقف تيمور منهم فأرسلوا الى الخان أن تيمور يشق عصا الطاعة وانه بسبيل الخروج عن سلطانه ! فنجحت الوشاية ، وثار الخان وأرسل أمرا باعدام تيمور الذي بلغته الأنباء مبكرا وأحس بالخطر مقبلا فأسرع الى جياده ومعه زوجته ونحو عشرين من رجاله الأوفياء الأشداء فجمعوا ما خف حمله ولاذوا بالصحارى .. وبدأت مرحلة التشرذم والمغامرة والمشقة .

وراحت القافلة المشردة تشق طريقها على الرمال الحمراء من بئر إلى بئر ، فالباء حياة الصجرء ، وأخذت الليالي والأيام تطوى ساعاتها في بطاء بين الألم والأمل ، ولكن كل تعب ومشقة وظلام كانت تبده ايتسامة « الجا » سليلة الأمراء التي كانت تشع بنور

الأمل فتضىء لزوجها حياته ، وتوقظ روحه وتبعث فيه الأمل ، كانت « الجا » خير معين لزوجها في أعصب ساعات الشدة واليأس ، وكانت نفسها مؤمنة بأن حياته لا تنتهى هكذا فى التشرذ والفاقة بل أن نجمة سيلمع ويضىء الدنيا بأسرها كما رأى والده فى منامه .

والتقى تيمور بشريد آخر كان بدوره أميرا على كابول ثم طارده الخان . كان الأمير حسين شقيق الجا زوجة تيمور فانضم الشريدان وتحالفا معا على ما كانا فيه من بلاء وقادا رجالهما الستين على أرض المغامرة والمشقة يخرجان من مأزق إلى مأزق ، ويمرқан من شرك إلى شرك حتى فقدوا أغلب رجالهما ، ثم اتفقا على ان يبحث كل منهما عن مستقبله فى طريق .. حتى لا يقعا معا فى أزمة واحدة تقضى عليهما معا ، ومن ثم ذهب الأمير حسين وزوجته ورجاله ، وبقى تيمور وزوجته ورجل واحد وحصانان وبعض المؤن . وابتسمت الجا .. وقالت : يا مولاي ، ان هذه ليست النهاية !

وفى طريقه انضم اليه بعض الأعوان الفرسان المرتزقة ، ثم التقى تيمور بكثرة من رجاله القدماء ، وقد خرجوا فى ثلاث فرق للبحث عنه والانضمام الى قيادته ، وقد أخذ تيمور يتسلل الى سمرقند ليتعرف أحوالها ، ويجتمع سرا بالتار بغية القيام بشورة ضد المغول ، ولكنه وجد أن الفرصة غير مواتية، وان المغول أكثر قوة ومنعة ، فأثر الرحيل الى كابل ليلتقى بالأمير حسين ، وقطع مع جيشه الصغير خمسمائة ميل فى ظروف جوية ومعنوية قاسية

حتى التقى الحليفان ، وشرعا في العمل معا ، وكانت أول مهمة
لهما أمير سيجستان واخماد الثورة التي نشبت في بلاده ، وقد انتهى
الأمر بخضوع هذه البلاد لتيemor والأمير حسين ..

وفي خلال تلك المعارك أصيب تيمور بسهم في يده ، وآخر في
قدمه اليمنى واستمرت عاهة قدمه فظل يعرج بها طول حياته ،
ولذلك اشتهر باسم تيمور الأعرج .

ويبدو أن الأمير حسين قد اتخذ لنفسه القيادة دون تيمور ،
فاتجه من تلقاء نفسه على رأس قوة من أنصاره بغية الحصول
على انتصارات ضد المغول ، فاندفع في مغامرة انتهت بهزيمته وتبديد
جيشه واستطاع هو أن ينجو بنفسه ، وأن يعود .

وكان تيمور قد استعاد قواه ، وحشد جيشا من أربعة آلاف
محارب ، وعزم على بدء المعركة ضد المغول ، فصعد شمالا حتى
بلغ نهر آمو (جيغون) وبعث عيونته تكشف له مجريات الأمور ،
فعلم أن يكيجوك الحاكم العسكري الطاغية ينشر الرعب في
المدينة ، ويسلب الأهالي أقواتهم .. فقرر تيمور أن يضرب ضربته !

ولما سمع القائد المغولي بما تناهى اليه من أمر تيمور ، أسرع
بقواته الى احتلال نهر آمو ليمنع عبوره ، وقد خلدعه تيمور
متظاهرا بانصرافه عن العبور ، وأخذ يتلمس مخاضته حتى عبر النهر

فى لىلة ظلماء ، وأصبح وراء جيش المغول ، فهزّمه شر هزيمة ،
وقبض على يىكيجوك فى الوقت الذى وصلت فيه الأنباء بسوت
طغلك خان ، فانصرف ابنه الياس لىستولى على عرش المغول .

وتقدم تيمور الى « المدينة الخضراء » فشدد عليها الحصار ،
وفر حاكمها المغولى وحاميتها ودخلها تيمور ، الذى دانت له بلاد
« ما وراء النهر » .



بين السَّحَابِ والمَغْرِبِ

قويت شوكة تيمور ، وسارع بتنظيم قواته ، فقد كان يعلم أن المعركة آتية لا ريب فيها بينه وبين المغول ، وخرج ينظم دفاعاته بعيدا عن الغرض - كما صار يفعل القادة في الحروب الحديثة - وجعل قواته قلبا وجناحين ، ولكل قسم قوة ضاربة وأخرى احتياطية ، وبذلك طبق مبدأ الحشد والاقتصاد في القوة ، ووضع خطته على أساس أن تكون القوة الرئيسية في الجناح الأيمن تحت قيادة الأمير حسين ، ووضع نفسه على رأس الجناح الأيسر.

وخيل لقوات تيمور أن الحظ تخلى عنها ، فقد أمطرت السماء مدرارا ، وأشيع أن المغول قد افتعلوا ذلك بقدرة السحر ! وتقوى اشاعة السحر هذه الى حد قول بعض المؤرخين : ان المطر لم ينقطع الا بعد مصرع أحد السحرة في ثانی أيام المعركة ! كذلك تقوى بما لوحظ من استعداد المغول بالملابس الثقيلة والأغطية الواقية ..!

وقد ثبتت قوات تيمور في هذا المأزق ، برغم أن مواضع دفاعهم صارت طينا وباء ، ولكن روحهم المعنوية كانت عالية ازاء تصميم قوى وادراك تام لأهمية المعركة وضرورة كسبها .

وبدأت المعركة بهجوم شديد من المغول جعل الجناح الأيسر يتراجع ، فدفع تيمور باحتياطيه ، ثم لمع في ذهنه خاطر جرى ..

فأصدر أمره بالتقدم في بحر من الوحل ، واندفاع غير نظامي ،
على حين مرق تيمور كالسهم الخاطف الى قلب الجيش المغولي ،
وعلا صياح التتار ودقات الطبول ، فارتج على قيادة المغول، وظنوا
أن النصر لخصومهم .. فاضطرب أمرهم وشرعوا في الانسحاب .

وأخذ تيمور يرقب المغول من قمة تل مرتفع ، ويضع خطة
استغلال النجاح ، ولكن جناحه الأيمن تحت قيادة الأمير حسين
كان بطيئا في حركته مضطربا في قيادته فاضطر تيمور الى الانتظار
مكانه ! وضاعت منه فرصة تطويق المغول ، والقضاء على قواتهم
الرئيسية التي بدأت تتجمع وتستعيد شأنها .. وتعود الى القتال !

وأقلت زمام المعركة من يد تيمور بسبب أخطاء الأمير حسين
واستهاتته بأوامره وبدأ ضغط المغول يتخذ شكلا عاما على طول
الجبهة ، واضطر الى التراجع نحو سمرقند فوجدها تدافع ببسالة
فانحرف عنها ، واتجه الى الوادي لاعادة تنظيم قواته ، وضم
متطوعين جددا .. وفي تلك الساعات الحالكة فقد تيمور زوجته
« الجا » على أثر مرض مفاجيء .. وقد كانت بمثابة الشعاع الذي
يضي له في الظلمات .

وكانت سمرقند قد تصلبت في دفاعها وردت للمغيرين سهامهم
الى نحورهم ، وأقبلت أفواج المتطوعين من بخارى وغيرها فانقلب
ميزان المعركة ، وانهزم المغول .. وارتدوا عن المدينة بخسارة
كبيرة في الأتقس والخيل والأسلحة ، ثم غادروا الاقليم كله .

وهكذا انتصرت روح الأهالي على أسلحة المعتدين ، وفازت
المقاومات الشعبية على تكتيكات الغزاة .

واحتفلت سمرقند بالنصر فتعالت التكبيرات من المآذن
وصدحت الموسيقى وانتشرت الأعلام ، وأقيمت صلوات الشكر،
ودخل تيسور والأمير حسين المدينة فاستقبلا بحماسة بالغة ، وصارا
مالكين لزام الأمور من حدود الهند الى بحر آرال : الا أن
تحالفهما الظاهر لم يكن يخلو من أسباب الكراهية والخداع !؟..



عملية تمويه

وبدأت المعركة بين تيمور والأمير حسين ، أى بدأت الحرب الأهلية لتقرير المصير وتوحيد الوطن الجديد تحت قيادة واحدة .
واستقر رأى تيمور على غزو « كرشى » ، وقد تم ذلك بعملية خداع رائعة .

فقد أذاع تيمور أنه سيتجه الى الجنوب لمقابلة ملك الحيرة والتحالف معه على غزو الشمال ، ونقلت قوافل التجار هذه الأنباء واتجه تيمور فعلا الى الجنوب ريشما يستقر فى أذهان خصومه صدق الاشاعة ، ثم انقلب فى الليل فعاد واستخدم أساليب التمويه والخداع لاختفاء موقعه ونياته فى الوقت الذى كانت حامية المدينة مطمئنة الى أنه فى طريقه الى الجنوب .. فلم يكن ثمة استعداد أو ترقب !

وقام تيمور مع أحد رجاله بمهمة الاستطلاع لمعرفة منافذ المدينة وخطوط دفاعها ومدى استعداد حاميتها ، وعلم أن الحراس ينامون الليل غير مباليين .. فأصدر أوامره للتسلل الهادئ قبيل الفجر ، وعندما أشرقت الشمس كان رجاله قد استولوا على القلعة والدفاعات وسلمت الحامية وأعلنت خضوعها .. وانضوى الجميع تحت لواء تيمور .

وبداً نجم تيمور في الصعود ، وطار صيته في جميع الأقطار
وانضم إليه رؤساء القبائل وأصحاب الزعامات وبعض كبار المغول
على حين أخذ أتباع الأمير حسين ينفضون عنه ، وأخذ نفوذه
يتضاءل كما يحدث لقطعة من الثلج أمام حرارة الشمس المشرقة ..
وقد اختلف الرواة في تسجيل نهاية الأمير حسين، ولكن مما يذكر
لتيمور أنه أعلن رفع يده عنه ، أى أنه لم يأمر بقتله نظراً لما كان
بينهما من صلات قديمة !



زعيم النار

عند وفاة الأمير حسين اجتمع زعماء القبائل من حدود الهند الى الأقاليم الشمالية ومعهم كبار رجال الدين وأخذوا ينظرون فيمن يولى زعامة التتار ، وكان رأى بعض الرؤساء أتباع نظام جنكيز فى أن يولى الزعماء أحد سلالاته ، على حين رأى البعض أن تقسم البلاد الى أقاليم يتولى كل قائد قسما منها ، وقاوم أئمة المسلمين هذه الآراء .. وقال قائل : « ان سيف تيمور ليس أقل شأنًا من سيف جنكيز خان » .

أما المحاربون فقد رأوا فى تيمور القائد القوى الذى يستطيع توحيد الصفوف ، وتوجيهها لحماية الدولة الناشئة ، وتدمير المغول القابعين فى الشمال ، وأما المسلمون فقد اختاروه لأنه مسلم يحمل السيف والمصحف ، فيقضى بهما على المشركين أعداء الاسلام ، مغول جنكيز خان .

وفى اليوم التالى لهذا المؤتمر الجامع قدم تيمور فاستقبله الأمراء وزعماء القبائل ورجال الدين وبإيعوه جميعا سيدا وأميراً لبلاد ما وراء النهر .. وأقسم الجميع على المصحف أن يدينوا بالطاعة لتيمور ، وكان هذا فى عام ١٣٦٩ ، وقد بلغ تيمور الثانية والثلاثين من عمره !

وشرع الأمير الجديد ينظم حكومته ، ويعين وزراء وحكام المناطق ، وعجب المؤرخون للمحارب البدائي وقد صار مشرعا ومنظما ورئيس دولة يجمع خطوطها الرئيسية جميعا في يده .

وعرف تيمور أن مركزه محفوف بالأخطار ، وأنه لم يصل الى كرسى الامارة الا بنفسه وعزمه وشقائه فكان عليه أن يعمل بسرعة وقوة للقضاء على خصومه وتأمين سلامة مملكته الجديدة فسارع بالقضاء على أتباع الأمير حسين الذين ناصبوه بالأمس العداء فهدم مساكنهم وقيد أسراهم وحرق ممتلكاتهم ، ثم أخذ يبعث سرايا ويشن الهجمات على مشارف بلاد المغول لكي تعود ببعض الأسلحة وبعض الرءوس .. ووضع خطة التدمير على رأس خطته الحربية .

وقرر أن خير وسائل الدفاع : الهجوم .

وعنى تيمور بالضبط والربط ، فعلم قواده وجنوده احترام النظام وسرعة تنفيذ الأوامر وأخذ يكافئ المحسن ويعاقب المقصر ويتكر في العقوبات ، فالجندى الذى يثبت تخاذله في المعركة أو خوفه من القتال كان يؤتى به فيربط في حمار بحيث يصبح وجهه في ذيل الحمار ، ثم يمر هذا المشهد الطريف في شوارع سمرقند عدة أيام حتى يراه الجميع ، فتكون فيه سخرية ، وعظة ! .

وكان شعور تيمور : الحكمة والشدة .

وقيل : انه يحكم بالعدل ويسخو في المكافأة .

ولكنه كان فظيحا في انتقامه ، ولا يكتفى بالنصر الحربي وانما يؤكد بالقتل والهدم والاحراق .. وبذلك يعلم خصومه بالنتيجة سلفا .

وقد قرر أن يقضى على جيرانه الأقوياء بالحسنى !

فلما لم يمثلوا أرسل اليهم شواظا من جهنم ، وبدأ بأمير خوارزم سيد كيفا وأورجانج وبحر ارال، وكان لا يزال على موالاته للمغول وتجاهله لتيemor .. فأرسل اليه تيمور وفدا يحمل هدايا ونفائس وطلب يد ابنته خان زاده الجميلة لابنه الأكبر جاهنجير .

ولكن الأمير « حسين » الصوفي فطن للأمر وظن أن تيمور يريد سحب سلطانه وسلب ولايته فأرسل اليه يقول : « لقد غزت خوارزم بحد السيف ، فمن أرادها فليأخذها بحد السيف » .

وهكذا لم يعد معدى عن القتال ، واذا رسالة أخرى تصل من الصوفي يقول فيها أميرها « لماذا تزهق أرواح الآخرين ونجري الدماء مدرارا ، تعال لملاقاتي وجها لوجه ، فيجسم أحدا الموقف » وحددت الرسالة الزمان والمكان .

وانطلق تيمور برغم معارضة أعوانه ، وبلغ المكان وطلب اللقاء ولكن خصمه لم يكن عند كلمته ولم يجسر على الحضور ، فقال تيمور : « ان من ينقض وعده يستحق أن يحرم الحياة » وعاد ليقود جيشه غير أنه سمع بمرض الأمير الصوفي ثم وفاته ..

فانقشعت سحابة الحرب ورضخت البلاد لأمر تيمور ، وصار ابنه حاكما عليها وتزوج الأميرة خان زاده .

ونظر تيمور حوله ثم اتجه الى الجنوب .. الى « هراة » التي كان يجلس على أريكتها الأمير الشاب غيث الدين فدعاه تيمور الى زيارة سمرقند .. فرد على ذلك بعمل استحكامات الدفاع واعداد حاميات المقاومة .

وتحركت قوات تيمور جنوبا لغزو « الباب الحديدى » وبين دقائق الطبول وصياح التتار تم غزو العاصمة فاندسرت الحاميات وفر الأهالى ، فطلب غيث الدين الصلح ، وأجيب الى طلبه وأرسل الى سمرقند .. ومعه البوابات الضخمة التى كانت تحمى هراة ، وأيضا الكنوز والأموال .

وكانت « هراة » عاصمة متقدمة أعظم من لندن وباريس فى ذلك الحين ، فكان أهلها نصف مليون على حين لم يزد سكان لندن أو باريس عن ٦٠ ألفا ، وكان بها مئات المدارس وثلاثة آلاف حمام وعشرة آلاف محل تجارى !

وفى عام ١٣٦٩ كان تيمور قد صار قائدا وحاكما وغازيا لمملكة بلغت خمسمائة ميل مربع فأخذ ينظر عبر مملكته الصغيرة ويرنو ببصره الى العالم الفسيح ، واتخذ لنفسه لقب الخاقان الأعظم .



سمرقند

أصبحت مدينة سمرقند حاضرة الملك الجديد، بالنسبة لمركزها الحيوى واتساعها ووفرة أسباب الحياة والنشاط فيها ، فبإسارح تيمور مدينته « الخضراء » برغم ما كان لها فى نفسه من مكانة وذكريات وقد أقام على قبر والده قبة ذهبية عظيمة ، وهدم القصر القديم الذى أضاء فى سالف الأيام بجمال زوجته الجا ، ثم أقام مكانه قصرا شائقا به حديقة جميلة وله بوابة فخمة عالية الذرى ، وقد صار القصر مشهورا باسم « البيت الأبيض » يقضى فيه تيمور فصل الشتاء .

والى جانب ما تميزت به سمرقند من مركز متوسط وخيرات وافرة كانت لها شهرة تاريخية ففيها أقام الاسكندر المقدونى فترة من أزهى أيام مجده ، وفيها عسكر جنكيز خان عندما كان يحصد الأعمار وينهب الأرزاق وقال عنها ابن بطوطة المؤرخ العربى الرحالة المشهور :

(هى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا ، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصرين عليه النواعير تسقى البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات ، وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن

علومهم وان كان أكثرها متهدما ، وقد خرب كثير من عمارة المدينة،
ولا سور لها ولا أبواب عليها ، وفي داخلها البساتين .

وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة للغريب .

وبخارج سمرقند قبر « قثم » بن العباس بن عبد المطلب ، وهو
الذي استشهد حين فتحها ..) .

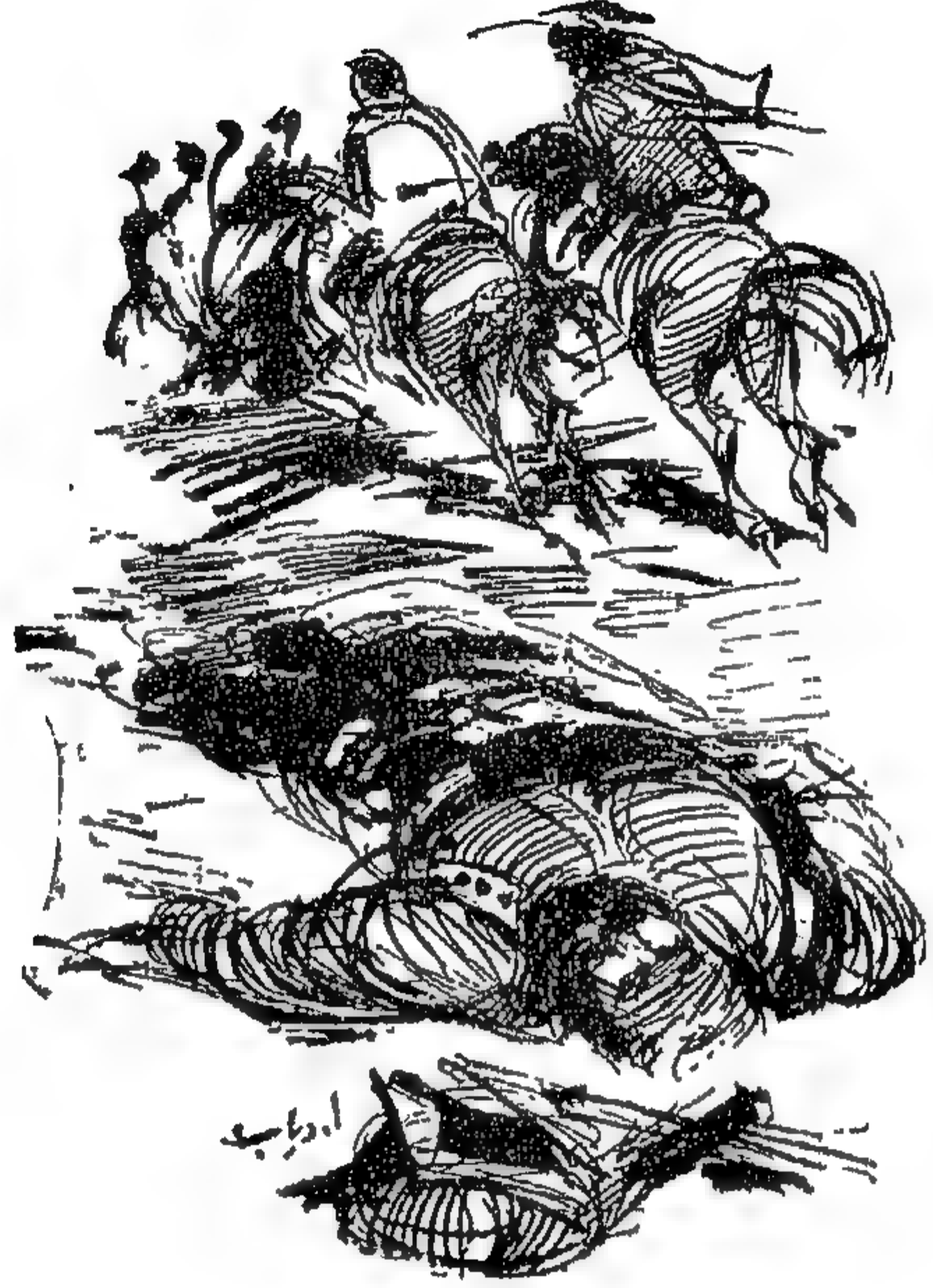
وقد كانت سمرقند كثيرة الماء خصبة الأرض ينعم أهلها بأربعة
مواسم في السنة وتحيط بها السواقي تدر الماء وتزيد الخصب
وتكثر الخيرات .

وكان استقبال تيمور في سمرقند حافلا عظيما ، خرجت البلدة
على بكرة أييها لاستقباله ، وأخذ أهلها يطلقون على تيمور
« الأسد الفاتح » ، « الملك العظيم » .

وما ان وطئت قدم تيمور عاصمة ملكه حتى مد لها يد
الاصلاح فشق الشوارع الفسيحة وأقام القصور وانشأ الحدائق،
وأقام القلاع على أنقاض الأحياء القديمة وجلب لها الصنائع وأرباب
الحرف لكي ينشئوا فيها صناعات وفنوننا وغمرانا ، وجعل اللون
الأزرق لونا رسميا فاشتهرت سمرقند باسم « المدينة الزرقاء » .
وكانت موضع اعجاب سفراء الدول الذين ذكر المؤرخون انهم
كثيرا ما كانوا يتنزهون في شوارعها النظيفة المستظلة بشجر الحور،
وتزوج تيمور زوجة الأمير حسين « سارة خانم » كمادة ذلك

العهد ، وهى تتبسط لجنكيز خان ، وكانت موضع احترام الشعب وتقدير ذوى الرأى .

وبلغت سمرقند عصرها الذهبى بتقدم العمران ونشاط التجارة وزيادة الخيرات ، وذلك كله بين أضواء الانتصارات التى أحرزها تيمور وبلغ بها بلاد المغول ، حيث البقية الباقية من آثار جنكيز تعز باسمه وتعتمد على جمع من سلالة المحاربين الأشداء الذين ورثوا الاندفاع فى الحرب والاقدام على السلب والنهب ، وكانت عاصمة المغول « سارى » على نهر الفولجا - شريان روسيا الحيوى - ولها النفوذ على سياسة أوروبا الشرقية .



المعركة الكبرى

وكانت الدولة القوية الناشئة التي أقامها تيمور قد بلغت حدود الدولة الغارية التي خلفها جنكيز . ولم تعد بينهما سوى حدود وهمية لا تدفع اغارة ولا تمنع التحرش والاشتباك ، ولهذا لم تكن عن الحرب مندوحة .

وقد حدث أن هرب أحد أمراء بلاد القرم من أتباع الخان ويدعى توكتاميش ، لجأ الى تيمور يحتسب به ، فبعث أوروس خان فى طلبه لأنه كان قاتلا وأندرتيمور بالحرب اذا هو لم يسلم المجرم فرفض تيمور وأعاد وفد الخان برسالة مقتضبة قال فيها :

ان توكتاميش طلب حمايتى ، وليس بطوقى تسليمه !

وكان معنى هذا أنه مستعد لمحاربة الخان ..

والعجب أنه لما مات الخان راح توكتاميش يطالب بالعرش وأيده تيمور حتى حقق أمنيته .. فلم يحمد له انقاذه لحياته ، ولم يحفظ له جميل مساعدته حتى وصل الى سرير الحكم .. وانما قلب له ظهر المجن وقابل احسانه بالاساءة ، وقرر غزو سمرقند ونهب مملكة تيمور .

أخذ توكتاميش يعد العدة لمحاربة تيمور ، فانتهاز فرصة غيابه فى نواحي خراسان وأطبق بقوات جرارة على مملكته وراح

يخرب ويدمر ما وسعته الفرصة ويثير القبائل ويشيع الفتنة ، وقد صدته قوات التتار التي كان قيادها معقودا لابن عم تيمور « عمر شيخ » وما أن بلغت هذه الأنباء أسماع تيمور حتى ارتد مسرعا ليأخذ بيده زمام الأمور ، وكان في قدومه ما يحمل عدوه على التفكير في أسلم الوسائل وأفضل الحلول .. فقرر توكتاميش الجلاء وقنع من الغنيمة بالاياب ، تاركا خلفه طريقا مخضبة بالدماء .

عاد تيمور الى عاصمة ملكه فنفض عنها طابع الأسى وبعث في أهلها القوة ، وأعاد لجيشها الهيبة ، وقضى على الفتن التي رفعت رأسها في غيابه وسلمت ألويتها لعدوه ، وكافأ الذين أحسنوا الذود عن حماهم وعاقب الذين فرطوا في واجبهم وأساءوا الى ديارهم ، وقضى على كل معالم الهزيمة والفوضى .. وأخذ يستعد لرد الصاع صاعين !

وأقبل توكتاميش على محاولته الثانية يدفع جيشا جرارا داخل مملكة تيمور الذي كان يرتقب هذه العملية الخاطفة بخطة تجمع بين الجسارة والمفاجأة ، فلم يتجه الى قلب العدو .. وانما شغل المواجهة بقوات ساترة ، ودار حول جناح العدو في حركة تطويق فذة ! وشعر توكتاميش بأن قوات تيمور تحاول قطع خط الرجعة فانكفاً منسجبا وارتد الى حدوده مسرعا .. وهنا برزت حصافة تيمور وحسن تقديره للموقف .. فانه لم يخدع بهذا الانسحاب ، ولم يفكر في تعقبه ، وانما أثر التريث وغالب زهوة

النصر حتى يدرس الموقف تماما ويختار المكان والزمان المناسبين
لقهر خصمه ..

وهكذا تفادى تيمور الشرك الروسى الذى وقع فيه - بعد
عشرات السنين - نابليون ، ثم هتلر !

وقد كان عليه قبل ذلك أن يقضى على ثورة بعض الولايات
التابعة له التى أغرتها المعركة بشق عصا الطاعة .. فلما استتب له
الأمر واجتمعت عنده القوة أخذ يرنو صوب المفازة الهائلة والأرض
المجهولة حيث يكمن العدو الأكبر .. وقال تيمور :

الآن .. الى روسيا !



صملة روسيا

ان التاريخ يعيد نفسه ..

.. نعم فى نفس المفازة الثلجية القاسية ، وعلى ذلك الثرى العريض قضت جيوش عدة وانهزم قادة جبابرة ، وهناك حيث تقف الطبيعة فى وجه المغير تعطل تقدمه وتشل حركته وتنزل به البلاء فيعود من حيث أتى مشخنا بالجراح .. أو لا يعود .

ان الحملة على روسيا عملية جريئة تدخل فى عدادالمخاطرة أو المجازفة .. أو الانتحار ، وقد انخدع الكثيرون اذ قدروا الموقف من ناحية عدد الجيوش وأسلحتها ومعداتها ولم يفتنوا الى الأحوال الجوية ، والى اعتياد الروس على طبيعة بلادهم ،والى خطط الروس التقليدية فى التراجع مسافات كبيرة مع تدمير المدن واشعال الحرائق حتى تفعل الطبيعة فعلها مع الغزاة ، وتجهزهم للهزيمة النهائية .

هذا هو ما حدث لجيوش كثيرة أهمها وآخرها جيوش نابليون .. وهتلر .

وقد فكر تيمور فى عدوه تفكير القائد الحصيف الذى يجيد تقدير الموقف .

درس تيمور البلاد وطبيعتها ، وأهلها وجندھا ، والخطط
المنتظرة .. ودرس أيضا حالة قواته ، ومعداتھا ، وما يجب أن
يكون عليه تموينھا .

وكانت خطته تلخص فى الآتى :

- ١ - اختيار أكثر الطرق ملائمة للحملة وأهدافھا .
- ٢ - تقدير ما تحتاج اليه قواته من أسلحة ومعدات ومؤن .
- ٣ - تجهيز الحملة الكافية لنقل المؤن والملابس الثقيلة
والحاجات التى لا غنى عنها .
- ٤ - الاشتباك السريع مع العدو فى معركة قصيرة فاصلة .
- ٥ - تعبئة خيرة القوات والقواد لهذه المجازفة الكبرى .

وقد يقول قائل : ولماذا المجازفة ؟ اليس الأفضل أن يقنع
تيمور بمملكته الكبرى فلا يعرض قواته وشعبه ومستقبله لعملية
غير مأمونة العواقب .. ويكفى نفسه مشقة الحرب المجهولة ..؟

والرد على ذلك أن الحرب واقعة لا محالة .. وقد تعرض
تيمور من قبل لهجوم عدوه مرتين فاذا لم يعاجله بضربة قاصمة ،
فسوف يعيش مهددا ، وتنكسر معنويات شعبه وجيشه ازاء
هجمات العدو المتوالية ولهذا فانه خير له أن يهاجم .. وأن
يجازف !

ويمكن القول بأن تدير تيمور لم يجعل حملته على روسيا
مجازفة غير معروفة العواقب ، وإنما جعلها خطة مدروسة يتوافر
لها النجاح لأمر ثلاثة :

الأمر الأول :

انه أعد عدته لمهاجمة العدو في معركة حاسمة ، وكان يقول
« ان وجودى فى مكان الموقعة ومعى عشرة من الجند خير من
وجودى بعيدا عنها ومعى عشرة آلاف » !

الأمر الثانى :

انه قدر أهمية المفاجأة ، بأن يبادر خصمه فى وقت ومكان
غير متوقعين قبل أن يتمكن خصمه من حشد حشوده واحكام
خطته .

الأمر الثالث :

أنه لا يحرك قواته الا وقد حمل لها كل ما تحتاج اليه من
أغذية ومؤن ومهمات .

خرج تيمور على رأس مائة وخمسين الف فارس وراح يتقدم
على حذر ، من حصن الى آخر من حصون الحدود ، حتى اذا
اضطرته الثلوج أن يتوقف ، أقام مكانه حتى انتهى فصل الشتاء .
وجاءت مع طلائع الصيف رسل الصلح والسلام بعث بها خصمه
السادى فى غدره . . وقال تيمور :

لما جاءنى أميركم هاربا وضعت فى حمايتى ومنعت يد الخان
أن تطوله ، وساعدته حتى وصل الى عرشكم ، فلما أصبح قويا
تناسى خدماتى له وأغار على بلادى التى آوته من قبل عندما
كان شريدا فأعمل القتل فى أهلها والفتنة فى ولاياتها والخراب
والدمار فى مدنها ثم عاد فأرسل جيشا ثانيا لمحاربتى ، فلما شرعت
فى التقدم للثأر أرسلكم قائلا : أنه يريد الصلح ، وأنا فى الواقع
لا أومن كثيرا بعهود أميركم ، فاذا كان يريد الصلح حقا فمأليه
الا أن يرسل وزيره «على بك» للاتفاق والتفاهم .

ولم يأت الوزير .. وظهرت اللعبة !.

وصمم تيمور على العمل بسرعة ..

نظم قواته وسار فى تعبئة كاملة فى بلاد الأشباح ، وكان
للناحية الادارية نصيب كبير من عنايته .. وبذلك استطاع أن
يقطع ١٨٠٠ ميل فى خمسة أشهر وتعتبر هذه الرحلة من أشق
الرحلات التى قطعها جيش فاتح .

وعندما بدأ التلاقى كان تيمور يطبق مبادئ الحرب ،
فاستخدم الحشد وخفة الحركة والمفاجأة واستخدام الاحتياط
فى الوقت المناسب ، والمطاردة ..

كانت خطة تيمور تقضى بوضع قواته فى مواجهة العدو
لتثيته وشغله عن العملية الرئيسية ، وهى حركة تطويق جنبه

الأيسر التي وفر لها القوة الضاربة والسرعة البالغة فطوت ذلك الجنب، فلما شرع الروس في مقابلة ذلك الهجوم بهجوم في الناحية المقابلة لم يغير تيمور خطته وإنما دفع باحتياطيه لسد الثغرة وصد الهجمة ، وبذلك فوت على العدو فرصته ، فارتد على أعقابها وأخذ في الجلاء .. ولم يكتف تيمور بهذه المعركة ، ولم يدع لخصمه الفرصة للانسحاب المنتظم بل عاجله بالمتابعة ! فلم يكن من يخدمون بارتداد العدو ، ولا ممن يرحمون عدوا منهزما ! وكانت المطاردة جد قاسية على الخصمين ولكن تيمور أحالها الى معركة دامية ، مجزرة نهب فيها أرواح مائة ألف وذخائرهم وأسلحتهم وأقواتهم .. وبعدها وافق على الهدنة !

وعلى نفس المسرح عادت المعركة بعد ثلاث سنوات ولنفس السبب ! فقد نقض توكتاميش الهدنة ، فلم يجد تيمور بدا من وضع حد نهائي لهذه الأحداث فهاجم على العاصمة «ساري» وقضى عليها قضاء مبرما وأحرق عدة مدن وعاد على انقاض مملكة المغول بعد غزوة تاريخية قضى فيها على خصومه قضاء أخيرا وزالت دولة المغول وأشرقت دولة التتار .. أو دولة تيمور .



في بلاد فارس

كان تيمور متوقد الذهن دائماً اليقظة لا يفتأ يمد بصره فيما حوله من تخوم وأقطار ، يصرع خصومه ويغير على جيرانه ويوسع في مملكته الناشئة ويرقى احوال شعبه ، ويدير اموره جميعا على محور القوة والحنكة ، وقد ظل دهرا طويلا لا يفكر في غزو دولة المسلمين احتراماً للناحية الدينية ، فلما ساء حكم الولاة وتدهورت احوال البلاد ، غير تيموز فكره وجعل خطته الجديدة متجهة الى فارس .

وقد كانت النكسة التي اصابته بلاد فارس هي التي اغرت تيمور بغزوها فقد كان الشاه ضعيفا والامراء يتنازعون السلطان وكان كرسى الحكم يغرى اصحاب النفوذ فينقلب الامير على الشاه أو يصرع الأخ أخاه ، ثم يقول « لقد حققنا قسمة عادلة ، لى ما فوق الارض ، وله ما تحت الارض » ؟

واستغل حكام فارس بلادهم الغنية أسوأ استغلال وانصرفوا الى أهوائهم ومصالحهم الشخصية دون تقدير للصالح العام ، وكانت هناك ثمة اتفاقية بين تيمور والشاه من نوع اتفاقيات الود وعدم الاعتداء وقد احس الشاه بقرب منيته وخشى على بلاده من الفرقة والضياع ، وتذكر أن تيمور على استعداد فكتب اليه يسترضيه ويذكره « بالمعاهدة » أملا في حفظ بلاده لولى عهده ، قال :

انك قد خنت العهد ، وخنت بالوعد .

اننى لم أقم بعمل اخجل منه سوى ذلك العبث الذى
انصرفت اليه فى حياتى ، وهو من الامور التى يضطر اليها المرء
اضطرابا .

اننى اموت مطمئنا واسأل الله ان يؤازركم ويؤيدكم ، وكل
رجائى أن تعطفوا على ولدى « زين العابدين » الذى سيجلس
على العرش من بعدى وان تصلوا على روحى ..

ومات الشاه ، وكثر الطامعون فى عرشه ، واتتهى كل أمير
الى بلد يرفع عليها رايته ، فاستقل أحدهم باصفهان والثانى بشيراز
.. وهكذا كان يدعى لنفسه الحول والطول والاستقلال .. وكانت
رسل تيمور يرقبون مجرى الأمور ، فلما بلغت أنباء التطاحن
وأخبار الفرقة قرر أن يهبط على الغنيمة فينال نصيبه .. وأى
نصيب ؟ !

عزا تيمور أرض فارس فى عام ١٣٨٦ ، غزوة بغير قتال . فقد
استقبله على مشارف اصفهان كبار اهل المدينة يعرضون عليه
تسليم بلادهم ، ويرتضون الجزية التى يفرضها ولكن حدثت بعض
مناوشات واشتباكات بين الأهالى والجنود ، فاتهزها تيمور فرصة
سائغة تناسب أسلوبه المعهود فى الغزو فاقتحم المدينة وعصف
بأهلها وأمر أن يحمل اليه كل جندى من جنوده رأس أحد الخصوم
فحملوا له سبعين ألف جمجمة صنع منها هرما هندسيا بالغ
الروعة !

وخضعت فارس لحكم التتار ، ودفعت الجزية ، وخطب
باسم تيمور فى الجوامع وعين من قبله واليا عليها .



امبراطوریتہ نیمبور

في عام ١٣٨٣ كان تيمور قد بلغ الخمسين من عمره وهو يحكم امبراطورية واسعة الأرجاء نامية الثورة مترامية الأطراف ، وقد ذاع لقب « الامير تيمور » واشتهرت مملكته باسم امبراطورية ماوراء النهر ، أو امبراطورية تيمور .

وكان الفاتح الكبير كلما هم بمسير اندفع حوله رجاله كالرياح الهوجاء لا تصمد أمامها الحصون ولا تثبت حياها الجيوش فالتار كانوا قوما غير متمدينين ، الحرب شريعتهم والغزو مبتغاهم لا معنى للمعركة عندهم غير القتل والتدمير والسبي والغنائم ، وقد وصفهم ابن عربشاه ، فقال :

« كان جيش تيمور مؤلفا من رجال توران وأبطال ايران ، ونمور تركستان وفهود سجستان وصقور الدشت والخطا ونسور المغول وكواسر الحيتان وأفاعي حجنده وثعابين ايدگان ، وهوام خوارزم وجوارح جرجان وعقبان صغانيان ، وضواري حصار شادمان ، وفوارس فارس ، وأسود خراسان ، وضباع الجبل وليوث جازندران وسباع الجبال وتماسيح رشمدار وماللقان ، وأهل قبائل خور وكرمان وطلس أرباب طيالس أصيهاان وذئباب الري وغزني وهمدان ، وأفيال الهند والسند وملتان وكيشاش اللور وثيران شواحق الفور وعقارب شهرزور وخشرات عسكر

عكرم وجند يسابوز .. مع ما أضيف اليهم من أعيار الخدم وفواعل
التراكمة والأوباش والحشم وكلاب النهاب من رعا ع العرب
وهمج العجم وحثالة عباد الوثن وأنجاس مجوس الأمم ، مما
لا يكتنفه ديوان ولا يحيط به دفتر حسابان !

ومهما يكن في هذا الوصف الغريب من مبالغات وتشبيهات
لاذعة ، فان احدا لا يستطيع أن يدفع عن جيش تيمور مالمق به
من صفات الهمجية والوحشية ، وما اقترن باغاراته واعتداءاته من
حوادث مشنومة وأعمال نكراء ترفع عن أصحابها صفة الانسانية
وعلامات المدنية .

ولكن تلك الرقعة من السواد التي احاطت بتاريخ تيمور
لا تمنع من النظر بعين التقدير والاعتبار لتلك الشخصية العالمية
الفذة التي لمعت في الظلمة الحالكة وشقت طريقها في الصخر
والشوك ، وانطلقت من النشأة المتواضعة الى السيطرة العريضة
والشهرة المدوية ، واجتمع لهذه الشخصية من المواهب العسكرية
والمزايا السياسية ، ما جعل لصاحبها مكائته الثابتة في التاريخ
واسمه المدوي في قائمة العباقرة من جميع العصور .

وقد برزت عبقرية تيمور العسكرية في قيادته الحكيمة
لجبهة همجية لا تعترف بالقواعد والاصول فخاض بها الاهوال ،
ونازل بها اعظم الجيوش في زمانه وغزا الحصون المنيعة ، وقضى
على الممالك العتيدة .. كما برزت عبقرية السياسية في ادارته لدفة

الحكم واشرافه على جميع الشؤون السياسية والاقتصادية والمدنية
في امبراطورية شاسعة الارحاء مختلفة المذاهب متعددة الاجناس .

كان اذا غزا مملكة وادخلها في طاعته عين عليها واليا من
ابنائها يسوس امرها في ظلال توجيهاته ومراميه ، يجمع له الجزية
ويدين له بالولاء ، ويأخذ ابناء الأمراء الى العاصمة سمرقند
رهائن حرب فاذا ظهرت في بلادهم مؤامرات ، أو خيانات ، دفع
هؤلاء الأمراء حياتهم مقدمة للانتقام .

وكان معنيا بترقية بلاده ومدنيتها ، وقد اشتهر عنه ابتكاره
لنظام البريد واهتمامه بالمواصلات ففتح الطرق ، واقام الجسور ،
ومد أنابيب المياه ووضع الجمر ك والمكوس ، وجعل في الطرق
الطويلة محطات للخيل والمياه .

وجاء وصف نظام البريد الذي ابتدعه تيمور في كتاب ابن
بطوطة ، ومنه :

البريد صنفان : بريد الخيل ، وبريد الرجالة ، فاما بريد
الخيل فيسمونه « الولاى » وهى خيل تكون للسلطان أو الحاكم
أو الامير فى كل مسافة اربعة أميال .

اما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد أو يكون
اقل من ذلك الى الثلث ، وترتيب ذلك أن يكون فى كل ثلث ميل
قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال

مستعدين للحركة قد شدوا اوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل من نحاس ، فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى وخرج يشتد بمنتهى جهده ، فاذا سمع الرجال الذين بالقباب طبوت الجلاجل تأهبوا له فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومرق بأقصى جهد وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى المحطة الأخرى .. ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه ، وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة من مكان الى آخر ، وفقا لرغبة الامير أو الحاكم أو من يقوم مقامه .

وجعل تيمور لجيشه نظاما وقواعد وحدودا لا يخرج عنها احد ، فكان « الضبط والربط » الذى عرفناه حديثا هو الاساس الذى بنى عليه جيشه فتحول الهمج الى جند نظاميين يعرف كل منهم مكانه فى العمل وحدوده فى المعاملة ، وكان الجندى يتناول راتبا معينا ولا يسمح له بالاعتداء على أحد أو التناول على غيره .

وكان التجار يدفعون الضرائب على حسب تجارتهم ، فكان ذلك من أسباب الدخل الوافر ، وكان أكثر القوافل فى ذلك العهد تفد الى مملكة تيمور وتمسر من القسطنطينية الى بلاد فارس فسمرقند فبلاد الهند ومن البحر الأسود الى خليج فارس الى

خراسان •• وبذلك كانت طرق التجارة العالمية تحت ناظريه ،
وكانت وارداته تفوق واردات ملك فرنسا فى عهده •

ومثلما اهتم تيمور بشئون التجارة كان معنيا بالزراعة واصلاح
أحوال الفلاحين ، فقد كان يعتقد أن الفلاحين هم مصدر الثروة
ومنبع القوة للجيش والوطن •

وكان تيمور شخصية يحف بها الجلال وتحوطها الهيبة ، وكان
يطيل المكث بين حرسه الخاص الذى كان يبلغ خمسة وستين ألفا
من الرجال الشجعان ذوى البسالة والاخلاص ، وقد كان يجزل
لهم فى العطاء .: وكانت شخصيته كجندى ترتفع فيه على شخصية
الحاكم فقد شب على صهوة جواده ودان له الملك بحد سيفه ولذلك
كان معروفا أن تيمور كثير التنقل وان أكثر مكان عاش فيه هو
ظهر حصانه •

ان الرجل الذى حنكته التجارب وصنعتة الأحداث الهائلة
ظهر على مسرح التاريخ بسيفه وعقله فبهر الأنظار واجتذب تقدير
المؤرخين والمراقبين بعظيم مزاياه وجلائل أعماله ، وقد عاشت
عاضته سمرقند سنوات ذهبية تنعم بترف الانتصار وملاذ الحضارة
وخيرات التجارة العالمية التى كانت تمر بها من كل حذب وصوب ،
وهى البلدة المتواضعة التى تسلمها تيمور صغيرة بسيطة بيوتها

من الخشب والطين ، ففتح فيها الشوارع والميادين ، وأقام المباني وأنشأ الحدائق ، وجملها وزينها وأحسن خلقها فصارت درة البلاد الآسيوية وكبرى مدن العالم ، وجلب لها الصناع والفنيين والكتاب والعلماء ، وشيد الدور العمومية والجامع ومراكز الاستعلام ومرصد الفلك ، ولم تله فتوحه وغزواته عن التقدم المدني فحمل الرقى الى بلاده والخير والجمال لعاصمته ، والمدنية والحضارة لشعبه والذكرى الخالدة لبطولته وفطاته وخطته وأعماله .



سورات و غزوات

لم تكن حياة تيمور سهلة في أية مرحلة من مراحلها ولم يكن ميسورا أن يستقر الأمن والسلام بعد أن امتدت أطراف امبراطوريته ولكنه كان مولعا بالصعب معتادا على المشقة لا تكاد الثورة تنشب هنا أو هناك حتى يطير اليها وسرعان ما يقضى عليها ويشتد في عقاب مضميها .

فلما حدثت الشاه منصور نفسه أن يشق عصا الطاعة على تيمور ويرفع علم الثورة في فارس ويأخذ بزمام ملكها تحرك الجيش الى البلاد الثائرة فلجأ الشاه الى حصنه الحصين «القصر الأبيض» حيث أعد عدته لاقامة مديدة ودفاع لا قبل لأحد بتحطيمه ، فقد كان القصر بمثابة حصن منيع في قلب الجبال يصعب الوصول اليه لصعوبة المرتقى وضيق المسلك وتعذر استخدام أدوات الحصار ، كما أنه كان مزودا بالمؤن والمياه وأسباب الحياة ، مما يجعله يصمد عدة سنوات ، وكانت الحامية التي تدافع عنه شديدة البأس واسعة الخبرة بشئون الدفاع وفنون القتال .

ودارت المعركة بين المهاجمين والمدافعين وأخذت قوات تيمور تدور حول القصر الحصين تختبر مسالكه وتكشف موانعه وتتلقى بين الحين والحين دفعات قوية من سهام المدافع يمطرونهم بها في دقة وكثرة حتى تعرض الهجوم للاخفاق لولا دورة جديدة من

دورات تيمور الموسومة بالجرأة والاندفاع ، ظهرت على أثرها
ثغرة تدفقت منها القوات بغزارة ، فانهارت معنويات المدافعين
واضطرب نظامهم وسقطت خطتهم واستسلم القصر بمن فيه وقبض
تيمور على الشاه منصور فقتله وقضى على رءوس الفتنة وعاد
بلاد فارس الى قبضته القوية .

وأصبح تيمور على حدود البلاد العربية !

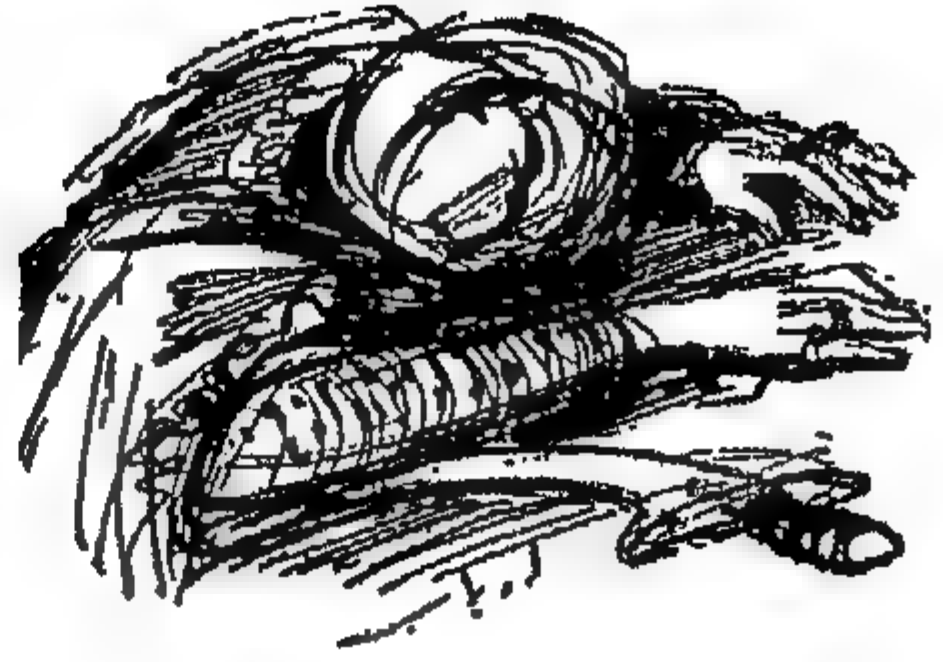
وكانت أخباره قد سبقته اليها ، وأحس أمراؤها بالخطر
الداهم ، فراحوا ينشدون الوحدة ويبحثون وسائل دفع الغزو
التتري الفظيع الذي اقترب بخيله ورجله وأصبح على الأبواب ،
وكان أول اتفاق أبرم بين مصر وبغداد ، واستطاع هذا المحور أن
يضم الى صفوفه الثائرين على التتار كالتركمان والقبائل التي
دخلت الحدود لائذة طالبة الغوث واستعد صاحب بغداد - الذي
كان في وجه العاصفة - فجمع أمواله وكنوزه وبعث بها الى مصر
وكانت جميع هذه المحاولات والمؤامرات تبلغ تيمور عن طريق
عيونه وجواسيسه .

دخلت قوات تيمور بغداد فلم تلق مقاومة تذكر فقد فر
السلطان هاربا الى مصر وترك البلاد بغير قيادة فاستسلمت واجتمع
كبارها فأعربوا عن خضوعهم لعاهل التتار ، وصار يدعى له في
الجوامع .

وأرسل تيمور الى سلطان مصر ينبئه بما وصل الى علمه من
أنباء المؤامرات وإانه من الصواب التسليم بالأمر الواقع حقنا
للدماء وحتى يكون هناك أمل في التفاهم والوفاق والسلام بين
الملكتين .

عندما وصلت رسل تيمور الى مصر تحمل الى سلطانها رسالة
العاقل التتري لم يابه السلطان بهذا التهديد وأساء استقبال
المبعوثين وأمر بقتلهم فضربت أعناقهم ، ثم تقدمت القوات المصرية
بمساعدة العرب والمماليك والتركمان والأتراك فدخلت بغداد
وجعلتها تابعة لمصر .

وكان تيمور في ذلك الوقت ينهب الطريق في غزوة مظفرة الى
الهند . قتل مائة ألف ونهب الذخائر والكنوز التي اشتهرت بها
دلهي وجلب معه الفيلة والخيرات والصناع ، وعاد من الهند عام
١٣٩٩ .. وفي رأسه فكرة غزو العالم العربي .



تقديم الموقف

كان تيمور يطرح الفكرة أمام ناظره ويرى الموقف من عدة
جهات :

١ - حالة الجو : الفصل المناسب للعملية .

٢ - الماء والكلأ : ليضمن تموين قواته .

٣ - الطريق المأمون : الذى يوصله الى الغرض دون أن
يتعرض لأعداء آخرين .

٤ - قوة خصومه : كيف يفرقها ويقضى على قسم بعد آخر .

وقد رأى تيمور أن خصومه هم : الترك ، والتركمان ،
والعرب ، وأهل جورجيا ، اذا سار الى بغداد تعرض لهجوم الترك
من ناحية ، ومصر من الناحية الأخرى .. وراح يعمل بالحكمة قبل
الحربة .

كتب الى بايزيد - سلطان الترك - يناشده الوقوف على
الحياد فى حربه ضد التركمان والعرب ويحذره فى الوقت نفسه ،
فرد عليه بايزيد بكتاب قال فيه :

« ليس من عادة الأتراك أن يتخلوا عن رجل طلب مساعدتهم،
فأرسل اليه تيمور منذرا ومهددا ، وبينما كانت الرسائل متبادلة

كانت قوات تيمور قد اجتاحت « سيواس » وقضت على سكانها الأرمن وأبقت على المسلمين .. ثم حول عنان جواده فلم يمض للقاء الترك وانما فاجأ الحدود السورية عام ١٤٠١ .

وكتب تيمور الى والى حلب :

« انا وصلنا في العام الماضي الى البلاد الحلبية لأخذ القصاص من قتلة رسلنا ، ثم بلغنا موت السلطان الظاهر — وبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا اليهم وأظفروا الله بهم ثم رجعنا الى الكرج فأظفروا الله بهم ، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبي ابن عثمان — يقصد السلطان يزيد — فأردنا عرك أذنه فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاده كما بلغكم ونحن نرسل الكتب الى السلطان بمصر فلا يعود جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريتنا « أكلمش » الذي أسروه فان لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم والسلام » .

ومثلما حدث في مصر ، حدث في حلب : ضربت أعناق رسل تيمور .

وأخذت حلب تستعد وتتحصن وامتأأ أهلها وحاميتها حماسة لدفع الخطر المقبل ، ومهما يكن من أمر هذه الاستعدادات فقد كان واضحا أن معلومات أمير حلب عن تيمور كانت ناقصة وان تقدير الموقف لم يكن صحيحا اذ سرعان ما أطبقت القوات التتارية على حلب فدمرتها وقضت على حاميتها وجعلت عاليها سافلها ، واتتهكوا حرماؤها وداسوا مقدساتها .

جاء في « كنوز الذهب » :

(ان جيش تيمور لما دخل الى حلب نهب وأحرق وسبى وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيقتلونه من يدها و فلجأت النساء عند ذلك الى الجامع ظنا من أن هذا يقيهن أيدي الكفرة ، وصارت المرأة تظلي وجهها بطين أو بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها فيأتى الجندي من التتار ويغسل وجهها و)

واستسلم ذوو الشأن في حلب ، ومع هذا قتلهم تيمور جميعا وأحرق المدينة بعد أن ظفر بكنوزها وذخائرها ، وأقام فيها نحو شهر وجنوده ينهبون ويخربون ويسرفون في القتل والنهب والاعتداء .. وبني من رؤوس القتلى عشر مآذن .. ويقال انه قضى على عشرين ألف رجل في هذه الغزوة النكراء .

وفعل التتار بأهل حماة ما فعلوا بأهل حلب من قتل وتدمير وسبى ونهب ، واستسلمت حمص بغير قتال ، وسجل تيمور على رخامة بالجامع الأموي بحماة العبارة الآتية :

(ان الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الى بغداد فحاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا وظفرت طائفة من التركمان بجماعة من رجالنا فسجنوهم فتوجهنا لاستخلاص قريتنا من أيدي مخالفينا ..) .



التنارة.. والنار والسمار

اجتاح التتار الشام وأطبقوا على دمشق ، وكان ملكها قد
بارحها لائذاً بالفرار إلى مصر فلما أرسل تيمور إلى نائب دمشق
رسولاً قتله نائب الملك قبل أن يستمع إلى رسالته مثلما فعل
نائب حلب من قبل .. وكان الثمن فادحاً .. القضاء على أعظم مدينة
وأجمل عاصمة في ذلك العهد .

ذكر ابن اياس : انه كان بين أهل دمشق وبين جنود تيمور في
أول يوم موقعة عظيمة قتل فيها من جند تيمور ألف انسان فأرسل
تيمور يطلب من أعيان دمشق رجلاً من عقلائهم ، ويمشى بينه وبين
أهل دمشق في الصلح ، فلما أتى رسول تيمور بهذه الرسالة
تشاور أهل دمشق فيمن يرسلونه إلى تيمور فوق اختيارهم على
القاضي تقي الدين بن مفلح بن الحنبلي ، لأنه كان انساناً طلق
اللسان يعرف التركية والعربية ، فأرخواه من أعلى السور ومعه
خمسة من أعيان دمشق ، فغاب عند تيمور ساعة ثم رجع من
عنده ، فأخبر بأن تيمور تلطف معه في القول ، وقال له :

« هذه بلد فيها الأنبياء وقد عتقها لهم » .. وشرح من محاسن
تيمور شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله ويرغبهم في
طاعته ، فصار أهل البلد فرقتين ، فرقة ترى ما رآه هذا القاضي ،
وفرقة ترى محاربته ، وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة القاضي

ومحاربة تيمور ، ثم غلب رأى القاضي وجماعته فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب القلعة وقال لهم .

— ان فعلتم أحرقت البلدة جميعها .

ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلبة سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما .

ثم قبض على القاضي وجماعته وأودعهم الحديد !

وذكر غيره : انه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نوذى فى الناس بالرحيل من ظاهرها الى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا فى ذلك ثم قدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف أهلها ، وهموا بالجلأ فمنعوا من ذلك ، ونوذى من سافر نهب ، فعاد اليها من كان خرج منها .

وحصنت دمشق ، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق ونصبت المكاحل على أسوار المدينة استعدادا للقتال ، ثم نزل تيمور بجيشه فى قطنة فملأت جنوده الأرض كثرة ، وصار بين جند دمشق وبين جند تيمور موقعة لم يتمكن بها تيمور من اقتحام المدينة ، ثم هرب السلطان الى مصر لما بلغه أن هناك مؤامرة ضده .

وكان قد اجتمع فى دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القرى ممن خرج جافلا من تيمور ، ما عدا الجند الذين فى دمشق ، ولما أصبحوا وقد فقدوا سلطانهم

وأمرأهم أغلقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلدة ونادوا
بالجهاد ، فتهيا أهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره
فقاتل الدمشقيون من أعلى الأسوار أشد قتال ، وردوا التتار عن
السور والخندق ، وأسروا منهم جماعة حاولوا اقتحام باب دمشق ،
وأخذوا من خيولهم عددا كبيرا ، وقتلوا منهم نحو الألف ، وأدخلوا
رءوسهم الى المدينة ، ولما أعيا تيمور أمرهم جعل يخادعهم فأرسل
يريد الصلح .

وطلب تيمور أولا تسعة أصناف من المأكول والمشروب
والملبوس وغيره ، وهذه هي عادته في كل بلد يفتحها ، فأجابه
الدمشقيون الى ما طلب باقتناع القاضي كما قدمنا .

وتقرر أن يجبي تيمور من دمشق ألف ألف دينار ، وفرض
المبلغ على الناس فقاموا به من غير مشقة عظيمة ، ولكن تيمور عاد
يقول انه يطلب عشرة أضعاف هذا المبلغ ، فنزل بالناس باستخراج
هذا منهم ثانيا بلاء عظيم . ثم فرض عليهم تيمور أن يسلموه أموال
الذين انهزموا وأسلحتهم ففعلوا ذلك ، ثم طلب جميع ما في دمشق
من السلاح جليله وحقيقه فأخرجوه كله فلما فرغ من ذلك قبض
على القاضي وجماعته وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق
وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ففرقه على أمرائه
وقسم البلد بينهم فساروا اليها بجنودهم وحواشيهم وأخذ كل
منهم مقامه في محلة من المحلات وألزموا أهلها باخراج كل ما عندهم

ودام هذا البلاء عدة أيام ، ثم أمر تيمور رجاله بالدخول وسيوفهم مشهورة ، فنهبوا ما قدروا عليه وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد وكان اليوم عاصف الريح فعم الحريق البلد حتى صار لهيب النار يناطح السحاب .

وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد أن قام ثمانين يوما ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق ، وزالت أبوابه ، وتفتت رخامه ولم يبق غير جورة قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودوزها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالا بالية ورسوما خالية ولم يبق فيها غير الأطفال .

وفوق ذلك كله ومع ما منيت به دمشق من قتل سكانها ، واحراق مصانعها وبيوتها . واستخراج أموالها وطرائفها ، أصابتها من تيمور لنك مصيبة لا تقل عن تلك ، أصابت منها الصميم فلم تبق ولم تذر .

قال ابن عربشاه في تفصيل هذا الهول (وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق ، أخذ هو يطلب الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع ، وأرباب الفضل ، واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام ، وارثجل وجيشه ، وقد أخذ من نفائس الأموال فوق الطاقة والامكان ، وتحملوا عدا ذلك ما عجزت عنه قوة

استطاعتهم فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ، ويلقبونه
شيئا فشيئا ، في أوعر المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ،
وأصبحت القفار والبراري والجبال والصحارى من الأمتعة
والأقمشة كأنها سوق أو معرض وكأن الأرض قد فتحت خزائنها
وأظهرت من المعادن وغيرها كامنها ، وأخذ تيمور من دمشق أرباب
الفضل وأهل الصنائع وكل ما هو صاحب فن من الفنون ، أو بارع
من النساجين والخياطين والحجارين ، والنجارين ، والاقباعية ،
والبيطرة ، والنقاشين ، والقواسين ، وبالجملة أهل كل فن
وصناعة ، ولم يترك الفقهاء ، والعلماء ، والأفاضل ، وحافظ
القرآن ، والعبيد ، والنساء ، والصبيان بما لا يسعه الضبط
والوصف) .

وجاء في الضوء اللامع : ان تيمور كان يسلك الجدم مع القريب
والبعيد ، ولا يحب المزاح ، ويلعب الشطرنج وله فيه اليد الطولى
ومهارة فائقة حتى انه زاد فيه جملا وبغلا ، بحيث لم يكن يلاعبه
فيه الا أفراد ..

وكان ذا رأى صائب ، ومكايد في الحروب عجيبة وفراسة
قل أن تخطيء ، عارفا بالتواريخ لادمانه على سماعها لا يخلو
مجلسه من قراءة شيء منها سفرا وحضرا ، مغرما بمن حوله معرفة
بصناعة ما اذا كان بارعا فيها ، حاذقا باللغة الفارسية ، والتركية ،
والمغولية الخاصة ، ويعتمد قواعد جنكيز خان أصلا .



مع التامخ

رحل تيمور عن دمشق ، وقد أصبحت أطلالا لا مال فيها ولا رجال ، ولا مساكن ، ولا حيوان ، صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويتراققون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ، فجرى من العربان والعشيرة ما لم يجر عليهم من جنود تيمور ، فذهبت حرمة المملكة ، وعزم السلطان الناصر على العودة الى دمشق ، ثم بلغه أن تيمور رحل عنها وهو مريض فعدل عن حملته ، وأرسل تيمور الى صاحب مصر (سودون) نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قريبه الذى كان أسر في أيام الملك الظاهر برقوق ، وأنه اذا أطلقه يطلق ما عنده من الأسرى ، فأطلقه وكساه وأحسن اليه ، فلما وصل جماعة السلطان ومعهم قريب تيمور الى معسكره ، أكرمهم واعتذر مما وقع منه وقال : هذا كان مقدرا ...

وقد رحل تيمور عن دمشق ولم يتعدها الى فلسطين ، فسلمت سورية الجنوبية من شره ...

وكانت أكثر المدن الصغرى في أواسط سورية قد خضعت له بحكم الطبيعة ومنها طرابلس وقد أحضر له منها مال ، واجتاح بعلبك ونهبها ، ولما وصل الى حلب حرقها مرة ثانية ، وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل أمراء

كل من وجدهم في طريقه وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم ، والواقع أن تخريبات تيمور في البلاد السورية ، لا يتأتى وقوع مثلها في عشرات الأعوام ، عملها بجيشه الجرار في عشرات من الأيام .

قال تيمور : ان ما فعله كان مقدرًا ، فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين والسفّاكين بيد أنه كان مغرى بغزو البلاد الإسلامية كما يظهر لأنه لم يترك قطرا إسلاميا الا تناوله بالبلاء والمحق حتى انه كان يريد غزو افريقية كما فتح آسيا ، يقال : انه لما اجتمع بابن خلدون المؤرخ المغربي المشهور سأله :

أين بلدك ؟

فقال ابن خلدون : بالمغرب الجواني .

فقال : — وما معنى الجواني في وصف المغرب .

فقال : هو في العرف معناه الداخلي أى الأبعد .

فقال له تيمور : أريد أن تكتب لى بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها .

فكتب له ابن خلدون ما طلب ، فدفعه تيمور الى أحد رجاله لترجمته الى اللسان المغربي ، ثم هرب ابن خلدون الى مصر ناجيا بنفسه مخافة أن يأخذه معه الى بلاده .



بغداد بعد رمش

نقطة سوداء في جبين الفاتح الترى أضاعت سمعته كجندى
وشوهت تاريخه كبطل ، فهو لم يعرف في حربه حدود الحرب ،
ولم يرع تقاليد القتال ، وانما كانت خطته القتل والتدمير
والخراب ، لم يحارب الجنود فحسب ، وانما أجرى سيفه على
النساء والأطفال ولم يدمر المواقع وحدها ولكن دمر المدن وهدم
اليوت وأشاع الفوضى والخراب ..

لم يعتمد على البراعة الحربية وانما أدار القتال بروح السفاكين
الهمج وترك كل خطة حربية مفتوحة بعد النصر ليتيح لرجاله ما
كانوا عليه من اجرام وفسق وسلب ونهب .

الذين دافعوا عن تيمور قالوا : انه مد في جبال الوحشية
ليخيف خصومه ، وقضى بالتنكيل والعذاب لأعدائه حتى يعلم
مصيره كل من تحدته نفسه بقتاله أو الخروج عليه ولكن الجندية
الحق تبرا من أفعال تيمور وقومه التتار ، وستظل النقطة السوداء
في تاريخه وتاريخهم تهمهم وتحط من شأنهم ، فالقوة وحدها بغير
الحق ، والنظام — مآلها الزوال .. ولهذا دالت دولة التتار عقب
موت عاهلهم تيمور ... ولم يعد يذكر سوى وحشية تيمور
وهمجيته .

وقد ساعد تيمور على احراز النصر وتقويض العروش وتدمير الشعوب أن خصومه كانوا غير منظمين فلو قدر للبلاد العريضة الاتحاد والتضامن لوقفت في وجه الطاغية وردته على أعقابها بهذا كانت قوته وشدته ، ان الذى فتح الباب على مصراعيه للتتار هو عدم الاتحاد ، ولهذا صرع التتار خصومهم دولة بعد دولة ...

لم يكن في مصر أو الشام رجل قوى بعيد النظر يستطيع أن يدفع هذه البلاد الى الاتحاد في مواجهة الخطر ، وأن يعد جيشا قويا موحدا يضم اليه فلول الثائرين والهاربين والناقمين ، ويوطد صلاته بالأتراك فتكون ثمة خطة واحدة تضغط على قوات التتار من أكثر من ناحية فتصمد لها وتودي بها وتقضى عليها .

لقد كان معروفا ان التتار لا يتركون بلادا تنعم بالسلم وتزدهر بالخيرات حتى تهبط عليها ججافلهم تقتل وتسبي وتدمر وتخرب.. فكيف قابل المسلمون في الشام ومصر وتركيا هذا الخطر؟.. كان بايزيد ملك الترك معتزا بسطوته وقوة جيشه ، وانه وحده كفيل بالقضاء على التتار فلم يتحرك حين دهم التتار دمشق وبغداد ، وظل ملتزما حلته حتى هزمت دمشق ثم بغداد ، وأخيرا دارت عليه الدائرة .

أما صاحب بغداد - السلطان أحمد - فكان قد فكر في الخطر المرتقب ، وكانت خطته أن يبارح بغداد مع صفوة جيشه الى حيث يلتقى بالجيش التركي وينضم اليه في قتال التتار... كانت

الخطّة متأخرة ، وعرف تيمور بها ، فقد كانت مخابراته واسعة
الحيلة وجواسيسه تعمل في كل مكان ، وتأثيه بأدق الأخبار ،
وبتفاصيل الخطط .

غادر تيمور البلاد السورية الى ضفاف الفرات سنة ١٤٠١ ،
وأراد أن يعمل بسرعة فقد كان عليه أن يقضى على بغداد في أيام
قليلة ليحول وجهته الى الترك الذين كانوا يستعدون لمحاربتهم .
بعث تيمور الى نائب حاكم بغداد يخبره بين التسليم ، أو
التدمير . فرفض التسليم ، ونادى على قومه بالجهاد ، واحتفى
خلف الحصون والأسوار فضيع على التتار فرصة الغزو بلا حرب ،
والفتح بلا مشقة وخاصة ان تيمور كان يتطلب انتصارا عاجلا ،
وغزوا سهلا بعد عناء المسير عدة أميال ... وذلك في الوقت الذي
كانت كثرة من جيوشه تتأهب في تبريز لمعركة ضد الترك .

وفكر تيمور في ترك بغداد الا أن موقعها أغراه ، ومركزها
الأدبي شده اليها ، فقد كانت مفتاح الموقف في الشرق العربي ،
والحصن الأخير الذي يعتد به ، فأراد أن يجعل منها الضربة قبل
النهائية التي يدوي صداها عند الترك فتحصدث الأثر المعنوي
المنشود .

وأخذ التتار يعدون العدة لحصار بغداد واقتحامها فأرسل
تيمور الى ابنه (شاه روك) أن يأتي اليه في عشر فرق ، ومعه
أدوات الحصار ، وأرسل الى ابنه سليمان أن يأتي اليه ببعض

الفرق من سمرقند .. وذلك لمواجهة معركتين فاصلتين حان موعدهما .

ولما جاء (شاه روك) بجنده أمر رجاله ، وكان عددهم يبلغ المائة ألف نسمة بالمظاهرة حول أسوار المدينة لعل في هذه المظاهرة ما يحمل سكان بغداد على طلب الصلح والتسليم ، ولكن شيئا من هذا لم يقع ، وظل سكان بغداد يعتصمون بأسوارهم ، فأغضب ذلك تيمور ، وراح ينصرف الى محاصرة المدينة بشدة وقوة وحمق .

ونصبت آلات الحصار ، وأخذت الحجارة تندفع نحو الأسوار فتهدم بعضها حيناً ، وترتد مدحورة حيناً آخر ، حتى تمكن التتار من فتح ثغرة في جانب من السور ، ولكنهم وجدوا أن البغداديين أقاموا وراء السور الخارجى سورا آخر ، وقد أخذوا مكانهم في أعلاه ، يدفعون عن مدينتهم عادية الغزاة ، ويرمونهم بالحجارة والأقواس .

وكان الحر شديدا لاهبا لا يستطيع المرء معه أن يقضى في الشمس المحرقة برهة من الزمن ، حتى لقد كانت الطيور تسقط من الجو لا تحراك بها ، وكان يضطر التتار أنفسهم ما بين حاشيتي النهار الى الاختباء في الظل ، لا يظهرون للعيان الا في أول النهار وآخره .

ولكن تيمور لم يضرب ضربته القاضية الا في ضحوة النهار ،
وفي منتصفه ، وهو الوقت الذي ينصرف فيه البغداديون عادة
للراحة ظنا منهم ان أحدا لن يهاجمهم في مثل هذه الساعة المحرقة ،
وبذلك تمكن تيمور من اقتحام أحد جانبي السور ، وعندئذ أمر
رجاله كلهم بالهجوم ، وكانت ساعة يشيب من هولها الأطفال ،
فأصبحت دار السلام دار الدم والضنك والقتل والسلب والنهب ،
وأما القتلى فلا يمكن أن يعدهم حاسب ، ولا يستطيع لهم حصر ،
ولقد أخبر مؤرخو تيمور نفسه أنهم يبلغون تسعين ألف نسمة ،
وأن مائة وعشرين سارية من رؤوس القتلى نصبت في الأرض
الفضاء .

أما الأسوار فقد دمرت ، وكذلك المنازل أحرقت ، ولم يترك
تيمور في بغداد غير بعض المساجد ، وكذلك كانت نهاية بغداد
عاصمة العباسيين ، ومفخرة البلاد العربية في ذلك الحين .

وقد أعيدت عمارة بغداد بعد ذلك العهد الا أنها أضاعت
مكاتها السابقة العالمية التي كانت تتمتع بها ، وتفخر بها على المدن
والعواصم وأصبحت مدينة عادية لا شأن لها في سياسة العالم
العربي ، ولم يكتف تيمور باحراق المدينة والفتك بسكانها بل
راح يبعث بخبر سقوط عاصمة العباسيين الى جميع المدن والحوضر
في مملكته ، والى بايزيد ملك العثمانيين أيضا .

سقطت بغداد ، وقضى التتار على كل عرق فيها ينبض بالحياة ،
وبارحها تيمور ومعه كنوزها وخيراتها ، ولوى عنان جواده الى

تبريز لمحاربة الترك ، وبذلك نجت مصر من شره ، و انتهت معاركه في البلاد العربية .. وكانت بغداد خاتمة الأهوال .

ولم يقف المؤرخون طويلا عند الحديث عن هذه المعارك ، فلم يكن للفن الحربى نصيب من العناية وانما كان اجماع المراجع وصفا اجماليا مليئا بالدعاية مشحونا بالحديث عن فظاعة التتار، واندفاعهم الخطير الى القتل والتدمير والسلب والنهب ، ولهذا يصعب على دارسى التاريخ العسكرى التحقق من التفاصيل والوصول الى خطط الفريقين والوقوف على التقدير الصحيح للمواقف المختلفة . غير أن البحث في شتى المراجع للملمين بمبادئ الحرب ينتهى بعدة نتائج حاسمة كلها تدل على ما كان يتمتع به تيمورلنك من موهبة حرية فذة ، ومبادئ ونظم استنها لنفسه وطبقها في معاركه فكان له النصر دائما في كل حرب خاضها ، وفي أية معركة أدار رحاها .

ومن أهم المبادئ التى جرى عليها تيمورلنك :

(١) المعلومات : سبق تيمورلنك أهل عصره في استخدام الجاسوسية والطابور الخامس ، ولعله جرى في ذلك مجرى جنكيز خان ، فكلاهما كانت له مقدرة فذة في استخدام عناصر الاستطلاع والجاسوسية ، وحقق بذلك قدرا وافرا من المعلومات الوافرة التى كشفت .

(٢) الحشد : كانت قوات التتار أكثر من الخصوم في أية معركة ، وكان تيمورلنك يعتمد في سرعة انهاء المعركة على جيوش جرارة تربو على عدد خصومه فكان له التفوق العددي في ساعة المعركة الحاسمة .

وكان يسير على تعبئة كاملة واستعداد تام لأي طارئ في القتال المرتقب .

(٣) القتال الهجومي : وكان الهجوم الميزة الغالبة على أعمال التتار فحروبهم كانت سلسلة من الغارات والهجمات الشديدة ولم يعرف عن خططهم الحربية غير وسيلة واحدة : الهجوم .

(٤) خفة الحركة : وكان التتار يفوقون سواهم في خفة الحركة فهم أبناء الصحراء وفرسان التنقل العاجل ، وأصحاب الغارات التي تعتمد على السرعة والجرأة وقد اعتادت خيلهم العدو السريع وانطبعت نفوسهم بالاندفاع الخاطف .

(٥) الروح المعنوية : لا غرو أن معنويات التتار كانت أقوى بكثير من غيرهم فهؤلاء الهمج الذين لا يعرفون الحياة الا أنها غزو وقتل وتدمير والذين استمروا يندفعون في غزوة بعد أخرى كانوا لا يعبثون بالمشقة ولا يعرفون للهزيمة معنى .. فليس هناك ما يخشون عليه الخسران .

(٦) النصر بالرعب : كانت أخبار التتار تفتح لهم أبواب المدن قبل وصول الجيوش وتهزم روح العدو قبل اللقاء ، ولهذا كان تيمورلنك يعتمد أن تذايع أخبار فتوحه وما جرى لخصومه من مصائب وويلات حتى تهتز لهذه الأنباء قلوب الملوك والأمراء ، فإذا هم التتار بمهاجمتهم عرفوا سلفا ما سوف يحل بهم ، وبذلك تكون الهزيمة المعنوية فاتحة الهزيمة المادية .

أسباب تفوق تيمورلنك

وبهذا يمكن تلخيص أسباب انتصارات تيمورلنك الى العوالم الآتية :

١ - التفوق العددي .

٢ - المعلومات .

٣ - الروح الهجومية .

٤ - الروح المعنوية .

٥ - الدعاية .

٦ - كفاية الناحية الادارية .

وليس بوسع قائد عالمي حديث أن يجيء بأكثر مما جاء به تيمورلنك .. الذي سبق بخمسائة سنة ! والفضل للمتقدم ، كما يقولون .

الدار القومية للطباعة والنشر

209
2
86f

Bibliotheca Alexandrina



0705933